

المخاتلة التخيلية للتاريخ في رواية "عناق الأفاعي" لعز الدين جلاوي

Fictional Subterfuge of History in Azzedine Djelaoudji's "Snakes' Nest"

بلقرون فاطمة زهرة*

جامعة أحمد بن بلة وهران 1

belgroun.fatima@edu.univ-oran1.dz

تاريخ القبول: 2025-05-21

تاريخ الإرسال: 2025-02-08

ملخص:

شكل حضور التاريخ محور الاشتغال الفكري والجمالي لرواية "عناق الأفاعي" لعز الدين جلاوي ولكن ضمن نسق تخييلي أدبي يستدعي فيه الأيقونات الفنية لدمج الحدث التاريخي في حاضنة الحدث الروائي، ومن هنا تأتي هذه الدراسة لتسائل آليات "عناق الأفاعي" في تخييل التاريخ، فقد ظلت تستدعيه باعتباره سجلا نصيا ذا حمولة معرفية وثقافية وبشكل منطقة مألوفة يلتقي فيها القارئ والنص، فيعتمد النص إلى تحطيم الأطر المرجعية الأصلية لهذا السجل ودمجها مع الكون التخيلي. وقد توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج أهمها: اصطناع النص سردية بديلة لتوظيف التاريخ تعتمد الهوامش والسرد التفصيلي والتناص.

الكلمات المفتاحية: تخييل؛ تاريخ؛ تفاصيل؛ تناص؛ عز الدين جلاوي.

Abstract:

The historical dimension serves as the core of intellectual and aesthetic exploration in Azzedine Djelaoudji's novel "Snakes' Nest." Through a literary and imaginative framework, Djelaoudji invokes artistic icons to seamlessly blend historical events within the narrative structure of the novel. This study aims to scrutinize the techniques employed in "Snakes' Nest" to fictionalize history. The novel consistently treats history as a textual repository, rich in knowledge and cultural significance, creating a familiar territory where the reader and the text interact. The author skillfully deconstructs the original referential frameworks of historical records and integrates them into the fictional universe. The findings of this study reveal that the text constructs

* - المؤلف المراسل.

an alternative narrative to employ history, emphasizing margins, detailed storytelling, and Intertextuality .

Keywords: Fictionalization; History; Details; Intertextuality; Azzedine Djelaloudji

مقدمة:

عمد جلاوي إلى كسر مألوفية الحدث التاريخي وتشويش الشفرة المتوجهة إلى ثبوتيه في نص "عناق الأفاعي" من خلال ممارسة المخاتلة التخيلية بميكانيزمات سردية تنفتح فيها العوالم السردية على التيار السيكلوجي وسجل الشعر والرموز الأنثروبولوجيا، فالمخاتلة التخيلية ممارسة سردية تنأى بالمتلقي عن التثبث من يقينية هذا الحدث السردى أو تلك الشخصية، فالكتابة السردية تقوم على التلاعب بالمرجعي والطعن الجريء به لإقامة عالمها الافتراضي. ومن هذا المنطلق فإن نص "عناق الأفاعي" يقوم على المزج بين التاريخي الواقعي باستدعاء الأحداث والشخصيات الحقيقية وإخضاعها إلى التخيلي المخاتل. فكيف تم المزج بين التاريخي والتخيلي في رواية "عناق الأفاعي"؟ ولمقاربة هذه الإشكالية اعتمدنا خطة منهجية تركز على بسط آليات المخاتلة التخيلية للتاريخ من خلال: تقنية الهوامش وتقنية التفاصيل وخطاب التناس.

1- تمثل التاريخ في الرواية في العربية:

تعدد الوسائط التعبيرية في وقتنا لا يلغي الاستغناء عن الرواية المعاصرة التي خاض كتابها ضروب المغامرة الجمالية بحثا عن الفرادة في التمثيل السردى لتلك الأحداث الأليمة التي عانت منها البشرية، استعانت هذه الرواية بشق العلوم الإنسانية على غرار التاريخ الذي يشاكلها في عملية الحكى والزمانية، ووجود الشخص و استعمال اللغة، وينفصلان فيكون أنّ التاريخ خطاب نفعي مبني على وقائع حقيقية، والرواية خطاب جمالي يعتمد التخيل لتحقيق الوظيفة الشعرية، يتحدث التاريخ عن أحداث طويلة في سطور قليلة، بينما تقف الرواية عند لحظة إنسانية معينة وتتوالد منها حكايات وأجواء تخيلية، أو تقف عند شخصية تاريخية تسائلها أو تحاكمها أو تمجدها، أو عند حدث تاريخي مهمش وتبني عليها عوالم توهم القارئ بصحتها "لأنها أكثر نظم التمثيل اللغوية قدرة في العالم الحديث من حيث إمكاناتها في إعادة تشكيل المرجعيات الواقعية والثقافية، وإدراجها في السياقات النصية ومن حيث إمكاناتها في خلق عوالم متخيلة توهم المتلقي بأنها تقدم نظرة للعوالم

الحقيقية ولكنها تقوم دائما بتمزيقها وإعادة تركيبها من جديد، بما يوافق حاجاتها الفنية، دون أن تتخلى في الوقت نفسه عن وظيفتها التمثيلية¹. معتمدة على مادتين: مادة مستقدمة من التاريخ ومادة مستقدمة من الخيال وتصهرهما في المحلول الروائي ليصيران جزءا واحدا لا يمكنه الانفصال ، اسمه النص الروائي.

يتحرك هذا النص الروائي ضمن دائرة سردية تمزج بين التاريخي والتخييلي وفق أسس منطقية تسمح بالانتقال بينهما دون الإحساس بعنف التحول إذ "تتم هذه الإفادة عن طريق تحويل الواقع السعي وتمثيله داخل مسار آخر وتصحيحه على وفق رؤية جديدة تمتحن الحادثة التاريخية وتؤولها تأويلا تخيليا.... وبناء واقع جديد مشيد روائيا على صعيد المناخ التخيلي"². فالتاريخ ينصهر داخل بوتقة النص الروائي ويصبح ثيمة قابلة للإنتاج وإعادة القراءة يثير المتلقي ويدعوه إلى التأويل.

تقديم الرواية:

تندرج رواية "عناق الأفاعي" للروائي الجزائري عز الدين جلاوي ضمن ثلاثية "الأرض والريح"، وتتموقع في المركز الأول وتليها "رواية حوبه"، رحلة البحث عن المهدي المنتظر" وتليهما رواية " الحب ليلا في حضرة الأعور الدجال"، والمفارقة هنا أنّ رواية "عناق الأفاعي" كتب في صفحتها الأولى رقم 3 إشارة إلى مركزها في نهاية الثلاثية في الوقت الذي كان يجب أن يُكتب "1" بالنظر إلى مركزها داخل النسق التاريخي الذي اضطلعت الرواية بسرده، فرواية "عناق الأفاعي" تبدأ تاريخيا مع آخر سنوات الحكم العثماني للجزائر واحتلال فرنسا للجزائر وقيام الثورات الشعبية، لتنتهي أحداثها بفشل هذه المقاومات. وتتابع الروايتان "حوبه" و "الحب ليلا" الوقائع التاريخية للجزائر المحتلة إلى حين استقلالها.

نُشرت رواية "عناق الأفاعي" عن دار "المنتهى" في الجزائر العاصمة، سنة (2021)، وقد تحصلت على جائزة "كتارا للرواية العربية" سنة (2022). تتشكل الرواية من ثلاثة فصول اصطلح على كل فصل بمصطلح " القسم"، وهي معنونة كالآتي القسم الأول: "الحبر

¹ إبراهيم عبد الله، (2003)، السردية العربية -تفكيك خطاب الاستعمار وإعادة تفسير النشأة- المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، ص8.

² محمد صابر عبيد، (2016)، سيمياء التشكيل الروائي الجمالي والثقافي في نظم الصوغ السردية، فضاءات، ط1، ص13.

الذي خان أوراقه" والقسم الثاني: "الصقر الذي خائنه برائثه" والقسم الثالث: "الدرب الذي اكتشف سبيله". وتشتمل البنية التركيبية على مقاطع ذات وحدات صغرى بلغ عددها (94) أربعاً وتسعين لوحة مرقمة، جاء هذا الكم من اللوحات نتيجة الزخم الذي فرضه الموضوع ومجرى الأحداث المتشعبة والمتشابكة وتعدد العوامل وتضارب أدوارها، فرغم هذا التقسيم إلا أنها ترتبط بخيط رفيع محصن / الثيمة التي ولدت المعاني الكامنة.

تنتهي رواية "عناق الأفاعي" إلى التخيل التاريخي، لكونها تشمل أحداثاً وشخصيات تاريخية جعلت من السرد وسيلة لامتثال مواقفها وأفكارها دون الانقطاع عن حقيقتها التاريخية، تتبع "السارد بصوره المتعددة" مصائر الشخصيات قبيل سقوط "الدولة العثمانية" وإلى فشل آخر مقاومة شعبية "مقاومة الشيخ بوزيان" أي على مدى نصف قرن من زمن السرد، يتسع الفضاء لحركة الشخصيات ليغطي كل أقطار "الجزائر"، فكانت بؤرة الانطلاق "الجزائر العاصمة" إلى شرق وغرب وجنوب الوطن، يرافق السارد/ المؤلف الضمني شخصية "شامخة" ليكتب تحولات المقاومة ضد الاستعمار الفرنسي.

توقف السارد طويلاً عند "مقاومة الأمير عبد القادر" فرصد مبايعة أهالي "غريس" له على الإمارة وحنكته في ترويض الاستعمار لفترة زمنية طويلة، وجهوده في التأسيس للدولة الجزائرية الحديثة ضمن صبغة سردية خاصة منفصلة عن التاريخ الصرف ومتحاشية التخيل المحض. تطوي "عناق الأفاعي" آخر فصولها على "أحمد باي" واستماتة جيشه في الذود عن مدينتهم، لكن جحافل المحتل تجتاح المدينة وتسيطر عليها وتهاجر سيرتها في يد مغتصبها. تتحول بوصلة السرد إلى الجنوب الجزائري ونعيش مقاومة الشيخ بوزيان وهي آخر المقاومات الشعبية، وبفشلها أعدمتم آمال الشعب الجزائري في الاستقلال.

عين "عز الدين جلاوي" عتبة افتتاحية لنصه "عناق الأفاعي" وسمها "المبتدأ"، ذكر من خلالها استلامه لهدية من حبيبته "حوبة" تحتوي على كتاب قديم مخطوط موسوم:

"حكاية شامخة وشامخ الأخوان في قتال ياجوج وماجوج الجنيان ومن ساندتهم من شرار بني الإنسان" لصاحبه "الشيخ علي بن شامخ القلعي المكحالي" حصلت عليه بعد طول بحث فقررت أن تهديه له ليحققه، يصف جلاوي فرحته بهذا المخطوط "ما يجعله مغرباً بالقراءة والتحقيق وإعادة الكتابة"، فأخرجه في صورة الرواية التي بين أيدينا "عناق الأفاعي". تحدد هذه المقولة الافتتاحية رؤية "جلاوي" الاستراتيجية للعمل واعتراف عن طبيعة الحدث السردية الذي اشتغل عليه، وتؤشر لفظة "التحقيق" إلى رغبة المؤلف في

حفظ هيبة المتخيل السردى في الرواية" ويُمنع تحويلها إلى تاريخ صرف"¹. بل هو بالنسبة لها الخلفية النموذجية؛ لأنها تعمل داخل منظومة لها ميكانيزماتها النوعية/ قوانين اللعبة السردية، وتخضع لرؤية تشكيلية لها سياقاتها الخاصة/ النسقية لا تربطها علاقات بأي شيء آخر خارجها/ الخارج نصي.

تذكرنا فكرة المخطوط برواية "أمبرتو إيكو" Umberto Eco (1932-2016) "اسم الورد"، قدم إيكولروايته بتقديم صرح من خلاله أنه عثر على مخطوط يعود لسنة 1842م للأب "فالي" الذي ترجم مخطوطا كتبه راهب ألماني يُدعى "أدسو" كتبه أواخر القرن الرابع عشر يروي فيه أحداث وقعت في دير لم يُذكر اسمه². ويأتي "إيكو" ليصرّح بأن الرواية هي نسخة محققة عن المخطوط. وعليه فإننا نعتقد أنّ الروائيين يلجؤون إلى هذه الحيلة لإقناع المتلقين بصدق الحدث الروائي وصنع علاقة جديدة بين النص والقارئ.

2 - آليات المخاتلة الروائية للتاريخ في رواية "عناق الأفاعي" لعز الدين جلاوي:

يتماهى التاريخ في حاضنة الروائي في نص "عناق الأفاعي" عن طريق عدة آليات فنجد تقنية الهوامش التي تشتغل في النص لقدرتها على العودة إلى التاريخ الحقيقي فتجعل عين القارئ تنسحب مباشرة إلى الهامش، فيجد حدثا تاريخيا يضيء مسار الحدث الروائي. كما نلفي تقنية التفاصيل التي يشتغل عليها السرد، فلا يغفل أي تفصيل مهما تناهى إلى الدقة سواء تعلق بالحدث أو بالشخصية وبذلك يضع القارئ في خضم الحدث السردى. وأخيرا يعتمد النص إلى محاكاة نصوص أخرى عبر الاستفادة التناسية كآلية تزيح التاريخ وتفسح مساحة أوسع للتخييل. كل هذه الآليات تسهم في إخراج الحدث التاريخي من دائرته وتقذف به صوب التخييل، دون أن يدرك القارئ الحدود الفاصلة بين التاريخ والتخييل.

¹ محمد صابر عبيد، (2016)، سيمياء التشكيل الروائي الجمالي والثقافي في نظم الصوع السردى،

ص125.

² ينظر: عبد الله إبراهيم، (2019)، أعراف الكتابة السردية، المؤسسة العربية للنشر، ط1، بيروت، لبنان،

ص163.

1.2 - الهوامش مخاتلة فنية:

في نهاية القسم الأول من الرواية والذي ينتهي بنجاة شامخة من الأشقر اللعين الذي ظل يطاردها رغبة في الانتقام منها، يشير السارد إلى الهامش الذي زودها بمعلومات أخذها من المخطوط الأصلي فيقول " انتهى البرزخ الأول يقول علي بن شامخ القلعي المكحالي: فلما ولى الأشقر اللعين بالخبية رهين، انبسطت شامخة ذاك النهار بفضل الواحد القهار، وأقبلت على الحياة كأن لم تعترضها أهوال ومماة، فاغتسلت ومشطت وبالعطر تطيبت ولباتت تصلي لله العظيم. المحسن الكريم، أن ييسر لها الأمور ويحفظها وقومها من كل الشرور"¹، يحيلنا الهامش إلى النص الأصلي في المخطوط وبالتالي فإن "جلاوي" يعتمد في تقسيم روايته نفس التقسيم في النص المخطوط وهذه حيلة من الروائي يبدو فيها ملتزما بما ورد في المخطوط الأصلي.

في بداية القسم الثاني من الرواية يُشرع السرد نوافذه على "شامخة" متجهة إلى الغرب الجزائري للالتحاق بمقاومة "الأمير عبد القادر" ويشير السارد في هامش الصفحة إلى مفتتح هذا القسم في المخطوط الأصلي "استهل علي بن شامخ القلعي المكحالي البرزخ الثاني بقوله: ثم لما كان الغد، امتطت شامخة جوادها الأدهم واتكلت على الإله الأعظم"²، وبالتالي فإن النص الروائي في بعده التخيلي يستمد نسغه من المخطوط الأصلي، وبالتالي تُبعد آلية الهامش شبهة التخييل عن النص وتوهم القارئ بصدقية الحدث.

ينتهي القسم الثاني وقد أخذ المحتل الفرنسي مقاومة الأمير عبد القادر الذي سلم سيفه إلى شامخة لتواصل الجهاد لتحرير الوطن الجزائري، ويشير في الهامش إلى المخطوط الأصلي " انتهى البرزخ الثاني بقوة لعلي شامخ القلعي المكحالي: فلما كان آخر الليل بهيم، تسلمت شامخة تحت رعاية السميع العليم. حتى بلغت حيث لالة الزهراء للصلاة والدعاء"³، يأتي إصرار السارد على وضع هامش مستنسخ من المخطوط الأصلي للدلالة على أن نصه الروائي يتأطر ضمن نسق مرتبط بالتحقيق والحكي مطابق لمرجعه، وهذه محاولة انفتاحية

¹ جلاوي عز الدين، (2021)، دار المنتهى، عناق الأفاعي، دار المنتهى، الجزائر، ص224.

² المرجع نفسه، ص227.

³ المرجع نفسه، ص501.

تتناص مع الخطاب التاريخي /المفهومي، حتى لا يفقد المتلقي متعة التفكيك الشخصي والتأويل الذاتي، ويحدّ من سلطة السارد في جعل نصه منغلقة.

يفتح النص سطره في القسم الثالث من الرواية على شامخة وبعض الفارين معها من العدو الفرنسي وهم يتخفون منه ويحاولون الالتحاق بمقاومة الشيخ بوزيان في الجنوب الجزائري. يقول السارد: "استهل علي بن شامخ القلعي المكحالي البرزخ الثالث بقوله: ثم لما كان الغد. امتطت شامخة جوادها الأدهم واتكلت على الإله الأعظم"¹، تأتي هذه الهوامش مثبتة في سياق السرد ليعيد النص عن نفسه شبهة التخييلي ويحيلنا إلى أنها أحداث منسوخة من هذا الكتاب وأنّ "جلاوي" قام بتحفيظه فقط، وبالتالي لم يتسرب البعد التخييلي إلى المتن الروائي. وهذه التقنية إحدى تقنيات المخاتلة الروائية التي عمد إليها النص إضافة إلى تقنية أخرى وهي:

2.2- التفاصيل وتركيب تاريخ مواز:

تتوزع رواية "عناق الأفاعي" كما ذكرنا آنفاً على 650 صفحة وهو ما يوحي بزخم الأحداث الروائية وكثرة التفاصيل السردية، فالسرد لم يغفل أي تفصيل يخدم رؤيا النص. تتسم رواية "عناق الأفاعي" لعز الدين جلاوي" بكثافة الأحداث التاريخية التي استثمرها الكاتب روائياً وأعاد تشكيل جزئيتها بالحذف والإضافة خدمة لرؤيته السردية. ومن هنا قد وقع اختيارنا على حدثين وجدنا أنّ النص قد استثمر في طاقة التفاصيل في بنائهم التي لا يغفل السارد من خلالها أية زاوية مما يجعل المتلقي يحضر عبر خياله في أتون الحدث.

استثمر المحكي الروائي في الحادثة التاريخية الممثلة في "تحويل مسجد كتشاوة إلى كنيسة" في الجزائر العاصمة خلال الحملة الفرنسية بعد توقيع "الداي حسين" معاهدة الاستسلام وتوجهه إلى منفاه. يقول السارد راوياً للحدث: "مع الصباح الباكر غدت كل الشوارع والأزقة المفضية إلى جامع كتشاوة تتدفق بشرا يختلفون في أعمارهم وأشكالهم... لكنهم يتفوقون جميعاً في إصرارهم على الدفاع عن حرمة الجامع.... اقترب الدوق دوروفيغو كثيراً من الجامع محمولاً على عربة خاصة، محاطاً بالحراس مدججين بالأسلحة، ومعه تراحم مئات الجنود... بلغ الرتل الأعتاب، راحت الطلقات تتوالى على الأبواب وراحت

¹ جلاوي عز الدين، (2021)، عناق الأفاعي، ص 505.

الأبواب تعلن عنادها أمام تدافع الأكتاف والأقدام ورؤوس الجذوع وانسحب المعتصمون خطوات وقد اختلط الحبال بالنابل...لَوْح الدوق دو روفيغو للرتل كي يتراجع... أشار إلى بعض جنوده الرابضين خلف المدفع، اندفعت القذائف تصب حممها على الأبواب التي عجلت تهاوى وخلفها سقطت مئات الجثث وتعالى صياح المئات داخل الجامع تجأر مستغيثة... في لحظات كانت ألسنة القذائف تفجر كل جنبات الجامع وقبته ومنارتيه واندفع الرتل ينتهك الحرم وتتالت الجثث تهاوى...تغشاها أمواج من دماء قانية تخرج الأبدان والأنواب... ظلت شامخة في مكانها لا تبرحه يكاد قلبها يرفرف... من خارج الجامع تعالت حممة الأدهم، مدت شامخة بصرها عبر النافذة رآته هناك يضرب الأرض بحوافره وقفزت أرضاً¹، شغلت هذه الحادثة صفحتين من سواد النص ما يوحى بثقلها السردى وتأثيرها في مصائر الأحداث والشخصيات، فقد أدركت "شامخة" بعدها لؤم الاستعمار فانطلقت هاربة وباحثة عمن يساعدها في المقاومة ضد المستعمر. بُنيت هذه الحادثة الروائية على السرد التفصيلي الذي يتعقب كل شيء يؤثث الحدث ويسعى للإمسك بكل تفصيل مهما تناهى إلى الدقة، فقد لاحظنا تتبع "السارد" لحادثة "التحويل" منذ الصباح الباكر ووصفه الأجواء العامة للسكان وكل ما يدور في فلكك مسجد "كنشاة" كما قدم وصفاً دقيقاً للجنرال ومراسيم قدومه إلى المسجد وغيرها من التفاصيل التي صنعت النسق البطئ للسرد وجعلته ساكناً متوقفاً، وكأن "السارد" يريد أن يمسك بكل لحظة ويعيد كتابتها تاريخياً. إنَّ الوقوف عند دقائق الجزئيات يريد السارد من خلاله إعادة كتابة تاريخ جديد لهذه الحادثة المفصلية في تاريخ الإسلام وتاريخ حملات التبشير وإدانة صارخة في وجه المحتل وتذكيره بالمجازر المرتكبة، فضلاً على أنَّ التفاصيل هي آلية نقدية في الكتابة الروائية لـ"نص عناق الأفاعي" لأنها ساهمت في إغناء المتخيل الفني للرواية والتخفيف من حدة التاريخ الذي يؤثث هذا المتخيل، فوجود هذا الكم الهائل من التفاصيل ليس مجرد إجراء طارئ أو أثرية روائية بل لها علاقة مباشرة بطبيعة الحدث الروائي وتوسعة حجم الخطاب وتوهم بواقعيته فـ"أكثر التفاصيل صناعة ومكر، لإيهام القارئ بأن ما يقرأه حقيقة لا خيال...وكلما دقت أسرع

¹ جلاوي عز الدين، (2021)، عناق الأفاعي، ص 146-154.

القارئ في تصديقها"¹ كما أنها تُؤمّن للقارئ معرفة أعمق بالشخصيات والمكان وتحمل دلالات رمزية أهمها: كتابة تاريخ جيد للمقموعين، ترسيخ التاريخ في الحاضر والعودة إليه لاستخلاص الحلول، وخلق حالات من التردد لدى المتلقي في تقبله لهذا الحدث. واستعان "السارد" بصيغة المضارع أكثر من استعمال صيغ الماضي ليُقنع القارئ أنّ الأحداث تُنقل آنيا ولا تُسرد من الذاكرة، ذلك أنّ الذاكرة -مع تقادم الزمن- تُسقط التفاصيل والجزئيات الصغيرة، وبالتالي فإنّ السارد يبدو مقنعا لقارئه.

من خلال استقراءنا لهذا الاستحضار التاريخي فنتبين أنه رغم القيد التاريخي الذي يثقل كاهل الحدث، إلا أنّ النص قد خضع للعبة سردية صُنعت بقصدية إيهامية، لتعديل السياق التاريخي متجاوزا بعده التسجيلي إلى التأثير الروائي، فيجد القارئ نفسه "يقراً" تاريخاً حقيقياً ووسيلة هذا الإيهام حوادث وشخصيات تاريخية حقيقية، ينثرها الراوي بشكلها ومضمونها... ويستحيل غالباً أن يطابق القارئ بين ما ورد في كتب التاريخ وما ورد في الرواية"²، لهذا بدت الحادثة وكأنها منسوخة عن كتب التاريخ تجعل المتلقي يستشعر وكأنه يقرأها لأول مرة فتستعيد بذلك نشاطها الدلالي المفتوح، وقد كان لحضور الأماكن الواقعية (جامع كتشاوة) والشخصيات التاريخية (الدوق دوروفيغو) وسيلة إيهام قصدية ابتغى السرد من خلالها إقناع القارئ بمصداقية تفاصيل الحدث، وهذا الصنيع الأدبي يعطي العمل الروائي دينامية خيالية³. تخرجه من مدارات التاريخ إلى الروائي الذي جعله يصنع حدثاً تاريخياً ممكناً في إطار تاريخي حقيقي.

ينفتح السرد على شخصية "الدّاي حسين" مصوراً المؤامرات التي تُحاك ضده ويعرض لسقوط حكمه وترحيله مجبراً إلى منفاه. وقع اختيارنا في هذه الدّراسة على مشهد سردي اقترب فيه النص من شخصية "الدّاي حسين" فلا يسلط الضوء على جوانبه العنفوانية التي عرف بها في كتب التاريخ وإنما يأخذنا إلى ذلك الجانب الباطني من شخصيته، الذي تمظهر جلياً عندما كانت سفينة المحتل الفرنسي تتجه به إلى منفاه، يقول

¹ سيزا قاسم، (2004)، بناء الرواية دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، القاهرة، مصر، هيئة الكتاب، ص115.

² سمر روجي الفيصل، (2003)، الرواية العربية - البناء والرؤيا-، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ص65.

³ سعيد يقطين، (2006)، الرواية والتراث السرد، رؤية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، ص74.

السارد: مستدعيًا "الداي حسين" باسمه: "غالب الداي حسين أحزانه وانكساراته... اغرورقت عيناه، أي حماقة ارتكب، أليس جديرًا به لو ظل هنا؟ أليس أولى لشرفه وكرامته وهو المحارب الصلّد...؟... أي معنى وهو يطرد ذليلاً مهاناً أن يكون على فرقاطة تحمل اسم جان دارك؟ هي رمز المقاومة والاستشهاد، وهو رمز الخذلان والاستسلام"¹، يبدو "الداي حسين" منكسراً وهو يرى أمام ناظره إيالته تسقط. استخدم السارد الضمير الغائب "هو" في توصيف وضعية "الداي حسين" وهو ما يجعل الشخصية تغادر زمنها الماضي الحقيقي إلى الزمن السردى وبالتالي تتحول إلى شخصية روائية، ليتمكن السرد من التصرف فيها ومعها باستقلالية بعيداً عن محاكمة الخلفيات المعرفية.

أبرز المقبوس السردى أداة من أدوات التحويل السردى للشخصية التاريخية وهي الكشف عن تفاصيل أعماق الشخصية بالتركيز على جوانبها الباطنية معتمداً تيار الوعي للكشف عن الجانب النفسي والسمات الداخلية للشخصية التي تتمظهر في لحظات الضعف والخلوة. يقوم التحليل السيكلوجي للشخصية بتخفيف زخم المعلومات التاريخية، والخروج عن الصورة النمطية لـ "الداي حسين" وإطلاقه في فضاءات السرد، فيقدم هذه المعلومات (نفي الداي حسين) بلبوس جديد يبعد عنها الرتبة والتقيرية، فالنص عمداً إلى "تغيير ملامح الشخصية ونقلها من العالم التاريخي إلى العالم الروائي التخيلي بإضافة بعض التصرفات والمقولات التي لم تصدر في الواقع عن الشخصية نفسها" فتندرج في سياق السرد بطريقة جديدة خدمة لاستراتيجية النص التخيلية وتفتح مساراً الحدث النصي.

عملت هذه المخاتلة التخيلية القائمة على تسريد تفاصيل سيكلوجية "الداي حسين"، تداخلاً وتفاعلاً، امتزجاً كلية، ليؤثرا في أفعال الشخصيات وجوانياتها². كما كشفت هذه اللوحة من تيار الوعي عن الجانب الباطني للمعلومة التاريخية، وتعرب عن جزء مهم من مشاعر وأحاسيس ورؤية "الداي حسين" بصورة دقيقة، فتتداخل العوالم الممكنة التخيلية والعوالم التاريخية مما يربك القارئ الذي لن يستطيع الفصل بين العالمين.

¹ جلاوي عز الدين، (2021)، عناق الأفاعي، ص 136-137..

² ينظر: محسن يوسف، (1993)، نحو ملحمة روائية _دراسة في مدارات الشرق-، دار الحوار للنشر والنزيع، اللاذقية- سورية، ص 22.

تبرز شخصية "الأمير عبد القادر" على المساحات النصية في القسم الثاني من الرواية الموسوم "الصقر الذي خانتته برائته". يفتح السرد على والد "الأمير عبد القادر" "الشيخ محي الدين" وهو يهيم بالاستعداد لتنظيم مبايعة ابنه. وهنا يقع جدال بين الشيخ "محمود المجاهدي" و"محمد المشرفي" أصحاب الشيخ "محي الدين" على قدرة "الأمير عبد القادر" على مقاومة جحافل الاستعمار. يقول الشيخ محمود المجاهدي "إنه عبد القادر، يستعرض فروسيته رد محمد المشرفي، فتابع محمود المجاهدي ولكنه فارس من طراز نادر... رد محمود المجاهدي وقد بدا غاضباً: في عصر النبوة قادة أقل منه سناً¹، بين المفلوظ السردى تفاصيل متعلقة بشخصية "الأمير عبد القادر" والخاصة بالفتوة والفروسية التي تتميز بها الشخصية في بعدها التاريخي. وهذه التفاصيل تسهم في "إغناء المتخيل وتنويعه لتدعيم هرمية القصة ونظامها وإخراجها من حدود نمطية التاريخ"²، إلى رحابة التخيل الروائي وجعل شخصية "الأمير عبد القادر" تتحرك بحرية أكبر في منطقة متخيلة موازية للتاريخ، فكلما تمكن السرد من إبعاد الشخصية عن التاريخ كلما كانت وظيفته التمثيلية أعمق. المحمولات المسندة إلى الأمير، محتوى الأفكار المكفولة إليه.

وأبانت التفاصيل على قدرة نص "عناق الأفاعي" على التخيل الإبداعي العقلي الذي يصوغ مادة التاريخ³، صياغة جديدة وفي ذات الحين تتوافق والحادثة التاريخية ودون الإخلال بمنطق الكتابة الفنية فالخيال عند الروائي المعاصر مقدس والحقيقة التاريخية مجال للانتهاك والاشتغال حسب الرؤيا السردية التي تؤطر النص⁴. فالتفاصيل تجيد تحبيب النص بطريقة لا تجعل للشك مجالاً في صدق الحدث.

3.2- التناص وهشاشة المرجعي:

تواصل نص "عناق الأفاعي" مع نصوص أخرى وتغذى بنسغها الفكري والجمالي، وهي بدورها ساهمت في تحديد معانيه وبنائه، يُصطلح في النقد المعاصر على هذه العملية

¹ جلاوي عز الدين، (2021)، عناق الأفاعي، ص 259.

² واسيني الأعرج وآخرون، (1996)، نبيل سليمان أو ربع قرن من الكتابة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، ص 51.

³ المويهي مصطفى، (2001)، تشكل المكونات الروائية، دار الحوار، اللاذقية، سورية، ص 49.

⁴ ينظر: طارق علي، (2005)، تأملات في الرواية والتاريخ، دار الكتب القطرية، دط، الدوحة، قطر، ص 30.

ب"التناص" (intertextuality)، فكل نص هو فسيفساء عن نصوص أخرى¹، ومن هنا فإن "عناق الأفاعي يتناص مع عدة نصوص أخرى خارجية عنه منها نجد: التناصات التاريخية والتناصات الشعرية.

ذكرنا سابقا أن نص "عناق الأفاعي" يؤثث بيته على المرجعية التاريخية وتسريدها، ومن هنا فإنه يستدعي حادثة تاريخية شكلت تحولا في مسار التاريخ الجزائر وهي مبايعة "الأمير عبد القادر" وتولييه إمارة المقاومة ضد فرنسا. تمثل السرد الحادثة التاريخية على لسان السارد: "الحشود التي التفت حول شجرة الدردار، وتدافع المئات يلتفون حولها وقد تركوا الخيول بعيدا، وتزاحم خلق كبير عند حافة وادي فروحة، وقد أفسحوا طريقا ممتدا حتى خيمة محي الدين الذي خرج للحظة وإلى يمينه ابنه عبد القادر... عند جذع الشجرة اعتلى محمود المجاهدي صخرة ثبتت حديثا لذلك، نشر ورقة كبيرة ومد بصره يتأمل الجميع، تنحنح وقرأ. بسم الله الرحمن الرحيم...وبعد: لقد قال صلى الله عليه وسلم: إنَّ الله يحيي بالسلطان ولا يحيي بالقرآن، هذا في الزمان الذي فاض فيه العدل، ونضب فيه الجهل، فما بالك بالزمان الذي كثرفيه الباطل وانتشروخفي فيه الحق ولم يظهر له أثر...إنَّ أولياء الله تعالى اتفقوا على نصب ولدك عبد القادر لنصردين الله، ورأى أن ولده مستعد لهذا الأمر، ووافقهم على نصبه ونصرته...فحضر للبيعة جميع أهل غريس وأعلنوا جميعا بطاعته ونصرته والرعاية له...واتفق علماء الإقليم على بيعته وطاعته ولم يخالف منهم أحد...²، شكل "بيان البيعة" وثيقة تاريخية اندرجت في تلافيف النسيج السردى ضمن استراتيجية التناص التاريخي. يؤدي هذا التناص وسيلة إيهامية للقارئ بصدق المشهد السردى، وفي ذات الحين يُعزز السارد بهذه الوثيقة التاريخية موقفه فينسجم المشهد السردى مع التاريخ ويتقاربان ويمتزجان فينتج عن هذا التلاقح الفكري نص روائي تخيلي يشتمل كل المكونات التركيبية للرواية من: أماكن/"شجرة الدردار" الزمن/ اليوم، السارد العليم بالحدث والرؤيا من خلف، الشخصيات/ "محمود المجاهدي"، "أهل غريس". ومن هنا شكّل التناص استراتيجية سردية تصوغ المادة التاريخية "مبايعة الأمير عبد القادر" صوغا جديدا جعلها تنتقل من مستواها التوثيقي إلى مستوى سردي منخرطة ضمن سياق

¹ ينظر: الزغبى أحمد، (2000)، التناص نظريا وتطبيقا، الأردن: مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، ص11.

² جلاوي عز الدين، (2021)، عناق الأفاعي، ص260.

السرد ومشتبكة بإطاره الفني، لإعادة بناء حدث تاريخي يتداخل فيه التخيلي والمرجعي وتتداخل فيه شخصيات حقيقية بأخرى متخيلة. وصنع عالم متخيل ذي كفاءة جمالية وإيحائية، لينجح السرد في أداء مهمته التمثيلية.

يستحضر نص "عناق الأفاعي" السجل الشعري للأمير "عبد القادر" وهو بذلك يكشف على انفتاح سجلات نصه على جنس أدبي مجاور. يقول السارد: "هتف الأمير عبد القادر منشداً بحماس:

لنا في كل مكرمة مجال ومن فوق السمك لنا رجالاً
ركبنا للمكارم كل هول وخضنا أبحراً ولها زجال"¹

ويورد النص ثلاث عشر بيتاً من هذه القصيدة على لسان "الأمير عبد القادر"، وبالتالي فإنه يستخدم ضمير المتكلم حتى يفسح المجال لـ "الأمير عبد القادر" لقول ما يخصه، فتتحول "الشخصية من تاريخيتها المرجعية القارة إلى شخصية روائية فنية، فإنها تتموقع داخل العمل وتخضع لشروطه وإجراءاته وسياقاته ومتطلباته متفاعلة معه"²، وهو ما تقوم عليه البنية التخيلية في اعتماد مكوناتها على تفاصيل ممزوجة بتخيلات سردية ترتحل بالأمير عبد القادر من التاريخ إلى الإحياء السردية بتمثيل الجانب الشعري فيه، وعليه شكلاً استنساخ هذه الأبيات الشعرية من مصدرها الأصلي إحدى أدوات المختلة والتخييل الفني، وساهم في بناء النص وتحبيكه درامياً وحكائياً وإخراجه من دائرة التاريخ وتحفيز المتلقي على القراءة التأملية الناقدة.

اعتمدت رواية "عناق الأفاعي" التناص كاستراتيجية بنائية وأداة مختلة للتاريخ لتشويش المتلقي من وثوقيته في الحدث، وسع التناص مدارات الكون التخيلي الرمزي، وساهم في تعدد الملفوظات الخطابية وتنويعها لإثراء النص بالمعارف الدسمة التي تحتاج متلق قادر على فك شفرة النص وبالتالي فإن رواية "عناق الأفاعي" بنت نفسها على أنقاض نصوص أخرى أهمها النص التاريخي ولكنها تجعل قارئها غير متيقن من هذا التاريخ الذي تسرده.

¹ جلاوي عز الدين، (2021) عناق الأفاعي، ص326.

² محمد صابر عبيد، (2012)، جماليات التشكيل الروائي. الأردن: عالم الكتب الحديث، ص12.

استعادت رواية "عناق الأفاعي" التجربة الاستعمارية وأجرت عليها تعديلا بما يوافق حاجات الخطاب السّردي، فلم توثق للتاريخ، بل جعلته الخلفية المانحة للمعاني، ومن هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة للبحث في آليات تخيل التاريخ داخل المتن الروائي، فالقوة التخيلية للنص التي تجلت في تحويل الحدث التاريخي إلى صور سردية تفيض بالأخيلة الماتعة والمدهشة مما يظلل القارئ الباحث عن المعنى المستقر. شكلت التفاصيل إحدى آليات الخطاب السردية الإقناعية باستقلالية "عناق الأفاعي" عن التاريخ وانفصالها عنه، ما جعل الحدث والشخصيات التاريخية في الرواية مغايرة لأبعادها المرجعية، وبالتالي فإنها تقترح على قارئها تاريخا يختلف عن التاريخ الحقيقي وتسرب إليه تساؤلات عدة حول الحياة.

- قدرة نص "عناق الأفاعي" على تمثل التاريخ وتسريده وفقا لميكانزمات الكتابة الروائية دون الإخلال بجمالياتها وشعريتها.
- شكلت الهوامش أحد أبعاد التشكيل البصري للنص الروائي، وصنعت مسلكا تجريبيا ينزاح عن الكتابة المألوفة وأسهمت في تذويب التاريخ في بوتقة التخيلي وصنع خصوصية الكتابة الروائية.
- الاستثمار في طاقة التفاصيل لكتابة تاريخ جديد مواز للتاريخ الواقعي، ومسألة أساسية لتمويه القارئ بصدقية الحدث وحقيقته وخلق جو من الالتباس بين التاريخي والخيالي الذي يحقق قدرا من المتعة الفنية.
- اعتنى النص بالشخصية التاريخية وأعاد تدبيجها ضمن نسقيته من خلال الحفر في بواطنها السيكلوجية والتفاعل نصيا مع إرثها الأدبي.
- انفتحت الرواية على نصوص لغوية مجاورة لجنسها كالشعر والخطبة، وهذا يعني إنكارها للحدود الأجناسية وتخطيها ما يجعلها قابلة للتأويل المستمر، كما ساعد التناص على إغناء المتخيل الفني للرواية وإخراجه من حدود التاريخ إلى رحابة التخيل وإيهام القارئ بصدق عوالمه.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

1. جلاوي عز الدين. (2021). عناق الأفاعي (د ط): دارالمنتهى، الجزائر.

المراجع:

1. إبراهيم عبد الله. (2003). السردية العربية -تفكيك خطاب الاستعمار وإعادة تفسير النشأة (المجلد 1): المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان.
2. الاعرج واسيني وآخرون. (1996). نبيل سليمان أوريح قرن من الكتابة: دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان.
3. الزغبى أحمد. (2000). التناس نظريا وتطبيقا: مؤسسة عمون للنشر والتوزيع، الأردن.
4. المويفي مصطفى. (2001). تشكل المكونات الروائية: دار الحوار، اللاذقية.
5. سمروحي الفيصل. (2003). الرواية العربية -لبناء والرؤيا-: اتحاد الكتاب العرب، دمشق.
6. سيزا قاسم، (2004). بناء الرواية دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، هيئة الكتاب، القاهرة، مصر.
7. طارق علي. (2005). تأملات في الرواية والتاريخ (دط). دار الكتب القطرية، الدوحة، قطر.
8. عبد الله إبراهيم. (2019). أعراف الكتابة السردية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.
9. محسن يوسف. (1993). نحو ملحمة روائية -دراسة في مدارات الشرق- دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية.
10. محمد صابر عبيد. (2012). جماليات التشكيل الروائي: عالم الكتب الحديث، الأردن.
11. محمد صابر عبيد. (2016). سيمياء التشكيل الروائي الجمالي والثقافي في نظم الصوع السردية (المجلد 1). فضاءات.

12. يقطين سعيد. (2006). الرواية والتراث السردي من أجل وعي جديد بالتراث. القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع.